كثرة المصادر والأسماء

احتجت إلى معرفة مصدرٍ من مصادر فعل: كذب، وذلك من أجل ضبط قافية من القوافي، وهذا المصدر هو: كذاب، على وزن كتاب، فرجعت إلى مادّة: كذب، فهل عليَّ من حرجٍ إذا أعربت في هذا المقام عن عجبي من كثرة مصادر هذه المادة، ولا بأس بذكرها كلّها. يقول الفيروزآبادي في معجمه: كذب يكذب كذِباً وكِذْباً وكِذْبة وكَذبة وكِذاباً وكِذّاباً ككتاب وحنّاء، على أن هذه المصادر ليست بكثيرة إذا قيست بالأسماء الدالة على الكاذب، فالذي يكذب هو: كاذِبٌ، وكَذَّابٌ وتِكِذَّابٌ وكَذُوبٌ وكَذوبَةٌ وكَذْبان وكَيْذَبان وكَيْذُبان وكُذُبْذب وكُذَبة ومَكْذُبان ومَكْذَبانة وكُذُبْذُبان، وما يقال في كثرة الأسماء الدالة يُقال في كثرة الأسماء الدالة على الكذب وهذه هي: الأُكذُبَةُ والكُذْبى، والمكذوبُ والمَكذوبَةُ والمَكْذَبَةُ والكاذِبَةُ والكُذْبانُ والكُذابُ بضمهما، إلى آخر ما جاء في تعريف هذه المادة.

إني آسف الأسف كله على أني لست من علماء اللغة حتى أعرف السبب في كثرة هذه المصادر وكثرة أسماء من يكذب وأسماء الكذب، وإذا لم أكن من علماء اللغة فما يمنعني عن العجب من هذه الكثرة التي أشرت إليها، ولست أدري هل تعرّض علماء اللغة في القديم والحديث لإيضاح هذا الأمر وهل

في جملة هذا الإيضاح كثرة قبائل العرب واختلاف بعض لغاتها، فمن هذه القبائل من استعمل مصدراً أو اسماً، ومنها من استعمل مصدراً آخر أو اسماً آخر، ولمّا جمع علماء اللغة ما تشتّت من هذه اللغة في البوادي اضطروا إلى تدوين كلّ ما سمعوه، أقول إن كل هذه الأمور لا علم لي بها، وليتني أعرف الأسباب التي أجهلها في هذه القضية، على أن الذي أعرفه أن أحكام تنازع البقاء تجري على اللغة جريانها على عالم الأحياء، على نحو ما أشرت إلى ذلك في بعض مقالات متقدمة، فليس من الضروري أن تعيش المصادر كلّها والأسماء كلها، فمنها ما يموت ومنها ما يقل استعماله ومنها ما يعيش على وجه الدهر، فمن المصادر التي عاشت ما جاء ذكره في القرآن الكريم أو ما جاء على لسان سيدنا محمد ﷺ أو ما استعمله بلغاء الكتّاب، فهل استعمل في هذا كله كُذُبْذُبان أو مَكْذُبان أو غيرهما من أخواتهما بدلاً من استعمال الكاذب والكذّاب والكذوب، فهذه الأسماء الثلاثة وأمثالها تعيش ويستفيض استعمالها. وأظن أن بعض مصادر كذب قد تستعمل ولا بأس باستعمالها ولا سيما في إقامة وزنٍ من أوزان الشعر كالكِذاب والكذَّاب على وزن الكتاب والحنّاء، أمّا الذي يكذب وبعض الأسماء الدالة على الكاذب فهل تستعمل كلها؟ وإذا استعملها أحد الكتّاب فهل يسلم من نقد الناقدين؟ أفلا يرمونه بالتنطّع والتنطّس في لغته؟

ومن المصادر القليلة السهلة ما يعيش في لغة الخاصّة والعامّة، من ذلك مثلاً مصادر فعل: أكل، يقال: أكله أكلاً ومأكلاً، فالأكل هو الغالب وهو أغلب من المأكل، أمّا العامّة

فإنها تستعمل: المأكلة على سبيل المجاز، وهي كلمة خصبة المعنى، فكثيراً ما نسمعهم يقولون في لغتهم: أموال كذا أو أموال فلان أصبحت مأكلة أي يأكلها من يضع يده عليها. وقد وردت المأكلة في اللغة ولكن على غير ما تقصده العامة، يقال: المأكلة وتضم الكاف: الميرة وما أكل، ويوصف به فيقال: شاة مأكلة.

ليس هذا كله ما يعنينا أمره في هذا الباب أي باب كثرة المصادر والأسماء، إنما الذي يهمنا أن نعرفه إنما هي الأسباب في كثرة بعض المصادر والأسماء، ولست أدري هل في لغات العالم مثل هذا الأمر، هل للفعل الواحد مصادر كثيرة أو للاسم الواحد أسماء كثيرة على نحو ما نشاهده في لغتنا؟ ولا ينبغي لنا أن نعتقد أن كثرة هذه المصادر أو هذه الأسماء دليل قاطع على غنى اللغة، فالمعروف أن اللغة الغنية إنما هي اللغة التي نجد في مفرداتها ما نستطيع أن نعبر به عن معنى من المعاني التي تجول في الخاطر، فإذا جال في خاطر أحدنا معنى ووجد في اللغة اللفظة الدالة عليه فنستطيع أن نستنتج من ذلك أن اللغة غنية، أما إذا لم نجد في اللغة ما نستطيع أن نعبّر به عن معنى من المعاني فاللغة فقيرة، والمفردات الكثيرة قلّما تكون برهاناً على غنى اللغة حتى إن المترادف فيها يختلف بعضه عن بعض، فقلّما نجد في لفظتين مترادفتين تطابقاً في المعنى، فلا بد من فرق بينهما ولو كان الفرق يسيراً.

على أني أشعر بأني كدت أخرج عن موضوعي فجوهر الموضوع معرفة السبب أو الأسباب في كثرة مصادر فعل واحد وكثرة الأسماء

المشتقة من هذا الفعل. فعسى أن يوضح لنا هذا الأمر علماء اللغة في عصرنا.

وهل من بأس إذا أفردتْ هذه المصادر وهذه الأسماء الغريبة التي يقلّ استعمالها على الرغم من صحّتها، وإذا استعملت قد ينبو عنها الذوق، أقول هل من بأس إذا أفردت كلها في معجم خاص وجمعت فيه كما تجمع الآثار القديمة في متحف؟.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٦

obeikandl.com

التعريف والنقد

فصول في المجتمع والنفس

تأليف الدكتور عبد الكريم اليافي دمشق ١٣٩٤-١٩٧٤

٣٩١ صفحة

ليس من السهل الإتيان على محتويات هذا الكتاب الجليل؛ كما أنه ليس من الإنصاف أن نقتصر على الإشارة إلى سعة اطلاع مؤلفه الدكتور عبد الكريم اليافي وإلى امتداد معارفه وانبساط آفاقه في أمور غير قليلة من العلم، فقد كتب له نصيب كبير من مختلف العلوم، قديمها وحديثها، وأضاف إلى ثقافة المتقدمين ثقافة المحدثين، مع كثير من التواضع، فما سمعته في مجلس من مجالسنا يفتخر بعلمه أو يتعاظم بمعرفته.

وإذا أردنا أن نعرف ولو معرفة يسيرة ما يشتمل عليه كتاب: فصول في المجتمع والنفس، فحسبنا أن نرجع إلى عناوين فصوله الخمسة: وهي الفصل الأول مبادىء في علم السكان، والفصل الثاني ملامح من التحليل النفساني، والفصل الثالث المسح الاجتماعي والعينات وبحوث نفسية اجتماعية، والفصل الرابع النوم والتنويم والأحلام، والفصل الخامس الطب والمجتمع، وختمت هذه الفصول كلها بمعجم المصطلحات.

هذه فصول لا سبيل إلى تلخيصها، فلا بد من الرجوع إلى جملتها وتفاصيلها حتى نملأ أذهاننا من فوائدها الغزيرة، فهي تدل على

obeikandl.com

الأطـوار التـي دخـل فيهـا العلـم عصرنـا هـذا، ولا سـيما علـم المجتمـع والنفس، كما أنها تدل على امتزاج روح المؤلف بهذه الأطـوار المختلفـة، وبدقة فهمـه لأسـرارها وخصائصها، والظـاهر أن المؤلـف قـد فطـن إلـى سعة فصول كتابه، فأحبّ أن يلخصها في آخر كتابه، على أنها، كما قال في بدء التلخيص، هي نفسها موجـزة، فذكـر فـي الخاتمـة خلاصـة الفصول، حتى إذا فرغ القارىء من قراءة كتابه النفيس حبس ذهنه على هذه الخاتمة فاستوعبها فأحيت في ذهنه ما مر به هذا الذهن في الكتاب.

حسبنا في آخر هذه الكلمة الموجزة أن نشير إلى مقدمـة الكتـاب التـي ذكر فيها المؤلف ابن سينا، ومرض العشق، وماضي الطب، والعصر الحديث، والنظرية التحليلية، والنظـرة الشـاملة التركيبيـة، والتحليـل النفسي، وتقدم الطب، وفلسفة الصيغ، وتقدم علم الأعصاب، وكشف الغدد الصم والفلسفة، والنظرة التركيبية، وتنظيم المجتمع، والمرضى مشكلة اجتماعية ومهمة الطبيب، والتطور الراهن، وخطة الكتاب.

إني لم أذكر هذه الأمور عبثاً، وإنما توخيت من ذكرها الإشارة إلى جلالة الموضوعات التي خاض فيها الدكتور عبد الكريم اليافي، كما أني توخيت الإشارة إلى سعة إطلاعه على نحو ما ذكرت من قبل، ولم يقتصر هذا الاطلاع على ما وصل إليه علم المجتمع والنفس في عصرنا هذا، وإنما امتد إلى عصورنا القديمة، فاستشهد بما كان يمر به في مطالعاته من آراء المتقدمين كابن سينا وغيره.

فليهنأ الدكتور عبد الكريم اليافي بجده وانصرافه إلى العلم، وبتواضعه في هذا الجد وهذا الانصراف.

وهل علي من حرج إن أثبتّ في خاتمة هذه الكلمة أربعة أبيات صدر بها المؤلف كتابه وهي:

يلخص سفريَ هذا بحوثاً   ويثبت في العلم بعض السيرْ

وأحلى اللقاء لقاء العقول   خلال تأملها والنظر

جنيت ثمار المعارف شتى   ففي كل فصل جنيّ الثمر

ويسعدني أن أرى رافهين   بني موطني بل جميع البشر

إنها أبيات تدل على عقل المؤلف الراجح، ونفسه الكريمة، ونزعته الإنسانية.

obeikandl.com

الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار

يواظب الدكتور جودة الركابي الأستاذ في جامعة دمشق على نشر كتبه في اللغة والأدب، فبعد أن نشر كتابه: طرق تدريس اللغة العربية، الذي ظهر في الوقت المناسب لظهوره عل نحو ما أشرت إليه في عدد من أعداد مجلتنا، نشر كتابه: الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار.

موضوع الأدب في يومنا هذا من الموضوعات التي يجب علينا الاهتمام بها، فقد وصل بعض أدبنا إلى حال لا ندري كيف نصفها، فما يضمنا مجلس من مجالس الأدباء المحافظين إلا سمعنا استهجاناً لبعض شعر هذا العصر ولبعض التراكيب، وللخروج باللغة عن جوهرها، ولبعض جمل لا هي عربية ولا هي أعجمية، ولسنا ندري عواقب هذه الأمور ولا عواقب أدبنا إذا طالت هذه الحال.

حسبنا الاقتصار على هذه الإشارة للانتقال إلى كتاب الدكتور جودة الركابي، وهو جملة من المحاضرات ألقاها على الطلاب توخى فيها، على نحو ما قال في مقدمته، أن تكون مدخلاً على أدب عصور الانحدار وأدب عصر النهضة أكثر من أن تكون دراسة مفصلة شاملة لهذين الأدبين، وذكر أن هذه المحاضرات لا تزال تحتاج إلى التفصيل والتدقيق، ولكنها على كل حال تلقي بعض الضياء على عصر هذين الأدبين، الذي تحيط به بعض الظلمات.

تمتد العصور التي وقف المؤلف عند آثار طائفة من شعرائها

وأدبائها من مطلع القرن السادس الهجري حتى استيلاء نابليون على مصر ١٢١٣ هـ، وذكر الدول المتتابعة الثلاث التي ظهرت في الشام ومصر وهي: دولة الزنكيين ودولة الأيوبيين ودولة المماليك ثم جاء العصر العثماني، ولم يقتصر المؤلف على العصرين المملوكي والعثماني وإنما تعرض لبعض مظاهر الأدب في العصر الزنكي والعصر الأيوبي، لأن الأدب في رأي المؤلف قد حافظ على رونقه في هذين العصرين وتماسك بعض الشيء في العصر المملوكي، ثم انحدر انحداراً واضحاً في العصر العثماني، إلى أن ازدهر في عصر النهضة الحديثة.

أما فصول الكتاب فهذه هي:

القسم الأول: أدب عصور الانحدار – ما قبل الانحدار – الزنكيون والشعراء في أيامهم – الأيوبيون والشعراء في عصرهم – عصور الانحاط أو الانحدار – الحياة الاجتماعية والدينية والفكرية– حال الأدب في عصور الانحدار – بعض مشاهير الشعراء والكتاب في العصرين المملوكي والعثماني.

القسم الثاني: أدب عصر النهضة الحديثة ومختلف العوامل في هذه النهضة ومختلف تيارات الأدب الحديث والحياة الأدبية ونزعاتها المتباينة في الشام ومصر.

من هذه الفصول كلها ومن أقسامها يتبين لنا الأفق المديد الذي جال فيه المؤلف، فلا يقع نظر القارىء على هذه الفصول وهذه الأقسام إلا أحاط بما بلغ إليه الأدب في تلك العصور، وليس من الضروري أن يطيل المؤلف الكلام عليها، فحسبه أن يهدي القارىء سواء السبيل، حتى يدرك خصائص ذلك الأدب، أما الإطالة في مثل هذا الموضوع فهي تحتاج إلى أكثر من كتاب.

ومن محاسن كتاب الدكتور جودة الركابي أنه بعد الفراغ من ذكر بعض القصائد يعمد للكلام على هذه القصائد، فيشير ولو إشارة خفيفة إلى بعض معانيها وإلى أسلوبها وصورها وإلى الموسيقى في ألفاظها وغير ذلك مما يعين على ذوق حسن القصيدة، ويدرب على التعمق في هذا الحسن.

ولست أريد أن أختم هذه الكلمة دون أن أذكر اهتمام المؤلف بدراسة النصوص، فقد عقد في مقدمة كتابه فصلاً سماه: دراسة النصوص الأدبية أشار فيه إلى الأمور التي تفتقر إليها هذه الدراسة، مما يدل على حسن تقديره لهذه الدراسة وسمو فهمه لمنافعها، فلا يحفظ الطالب شيئاً من الشعر والنثر لمجرد الحفظ، وإنما يدرك حسن ما يحفظ ويفطن إلى خصائصه.

كل ما ذكرت يدل على أن الدكتور جودة الركابي أستاذ يشعر بعظم أستاذيته، ويعطيها ما تستحق من العناية ويقوم بها أفضل قيام.

openkandl.com

شعراء من أمريكا الجنوبية

للأستاذ معد صائب من منشورات وزارة الإعلام العراقية ١٣٩٤-١٩٧٤

«سلسلة الكتب المترجمة»

لقد اختار الأستاذ المؤلف طائفة من كبار شعراء أمريكا الجنوبية، ونماذج من ثمرات قرائحهم، وغايته في ذلك، على نحو ما قال في مقدمة كتابه، أن يتاح للقارىء العربي فرصة الاطلاع على جوانب من أدب أجنبي كانت خافية عليه، وأن يفسح للأديب العربي في مجال الاحتكاك بهذا الأدب.. إلى آخر ما بسطه في هذا المعنى..

ليس في الإمكان في هذه الكلمة الوجيزة الكلام على الشعراء الذين اختارهم المؤلف، ففي تراجمهم المختصرة ما يعرف القارىء بهؤلاء الشعراء، وقد يبلغ عددهم أربعين شاعراً أو أكثر، وكذلك ليس في الإمكان الاستشهاد ببعض نماذج من شعرهم، فلا مندوحة للقارىء عن تقليب النظر في هذه النماذج والتدقيق فيها، وسيقف بعد هذا التقليب وهذا التدقيق على صور من الشعر تختلف بعض الشيء عن الصور التي يجدها في أدبه، وليس هذا الأمر بغريب، فإن لكل أمة أدباً خاضعاً لمزاجها وتاريخها وبيئتها وغير ذلك من العوامل، فالصور الشعرية التي تستفيض في شعر أهل البدو تختلف عن الصور التي تستفيض في شعر أهل الحضر ولكن اختلاف أدب الأمم بحسب مزاجها أو تاريخها أو بيئتها لا يمنع عن تمازج ثقافات هذه الأمم. فالرومان أخذوا عن اليونانيين، والأدب الفرنسي انبثق نوره من أفق الأدب اللاتيني، والشاعر الإنكليزي "تومسن" أثر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في

مؤلفي فرنسة، وشاعرا الإنكليز شكسبير وبايرون أثرا في الأدب الفرنسي، وأدبنا نفسه دخله شيء من حكمة الهند وفلسفة اليونانيين وأدب الفرس.

ما ينبغي للأدب أن يثبت على أساليب محددة، وما ينبغي له أن يتملص من عوامل الحضارات والثقافات، ففي كل يوم مداهب تولد ومذاهب تموت وألفاظ تدفن وألفاظ تبعث وأساليب تعيش وأساليب تنقرض.

إلاّ أن المهم في هذا كله أن لا تخرج اللغة عن جوهرها وروحها في تمازج الثقافات، المهم في هذا كله أن لا تصبح غريبة عن هذا الجوهر وهذه الروح. والخلاصة أن الأستاذ سعد صائب باختياره نماذج من شعر أمريكا الجنوبية قد أضاف إلى أدبنا شيئاً جديداً ولقد أصاب الأستاذ أحمد سليمان الأحمد لما قال في تقديمه كتاب المؤلف:

«إن وتراً جديداً في قيثارة الشعر يغني لنا الآن من خلال ترجمة الأديب الأستاذ سعد صائب لهذه المجموعة الفائقة من الشعر».

فما على شعرائنا إلا أن تجول خواطرهم في هذه المجموعة ليفرغوا ما استحسنوا منها في شعرهم بأسلوب عربي لا عجمة فيه، فيحنئذٍ تتم الفائدة التي توخاها الأستاذ سعد صائب في كتابه «شعراء من أمريكا الجنوبية».

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٤

غمائم الخريف

ديوان جديد للشاعر رياض معلوف

زحلة "لبنان" أيلول ١٩٧٤

في عصر مثل عصرنا الذي نعيش فيه، في عصر شاعت في أكثره حضارة المادة، وغلبت الآلة على مظاهر هذه المادة، أفما ينبغي لنا أن نرحب بالذين يشتد إيمانهم بسلطان الشعر؟ والأستاذ رياض معلوف صاحب «غمائم الخريف» من المؤمنين بهذا السلطان، وقد أيد إيمانه باستشهاده ببعض أقوال للمقدسي وابن خلكان: أيّ شرف أبقى من شرفٍ يبقى بالشعر، وإن امرأ القيس كان من أبناء الملوك، وكان من أهل بيته وبني أبيه أكثر من ثلاثين ملكاً، فبادوا وباد ذكرهم وبقي ذكره إلى القيامة، وإنما أمسك ذكره شعرُهُ، وإن تحت العرش كنوزاً مفاتيحها ألسنة الشعراء.

لست أشك في أن شاعرية رياض معلوف أصيلة، واعتقد أن الإنسان إذا لم يخلقه الله تعالى شاعراً، لن يبلغ من الشعر مبلغا مهماً تكن لغته وصوره فالشاعرية هي روح الشعر، لم يبالغ صاحب «غمائم الخريف» لمّا قال في مقدمة ديوانه: وكلّ قطعة منها، أي من قصائده، هي فلذة اقتطعتها من حشاشتي وقلبي قبل تسطيرها.. فشعره ابن قلبه وروحه، وما يشتمل عليه هذا الشعر من لغة وصورٍ وشعور إنما هو ابن طبعه، خلقه الله فيه.

تتجلى شاعرية رياض معلوف في مواطن كثيرة من شعره، تتجلى هذه الشاعرية في وصف الطبيعة، ومحبة ولده ووالده، ووصف جلائل الآثار، مثل وصف قلعة بعلبك ومغارة جعيتا، كما تتجلى في البكاء على شبابه، وفي إيمانه بالله تعالى، وفي وصف وطنه زحلة، ولست أرمي إلى الإتيان على هذه المواطن كلها، لقد مررت عليها فلم أجد فيها ما نجده من المعميات في بعض شعر هذا العصر، مما لا نفهمه ولا نظن أن أصحابها يفهمونه. فلا يشتمل شعره على صورٍ غامضة، ليس إلى فهمها من سبيل، ولا على ألفاظ متنافرة، تستوحش الواحدة من أختها، وإنما خياله مصقول وذوقه مصفًّى ولغته واضحة، ولا يحتاج رياض معلوف إلى أكثر من ذلك ليكون شاعراً أصيلاً.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٥

openkandl.com

شَقَاوَةُ الأَلفاظ وَسَعَادتُها

أرجع إلى أيام الصبا، أيام المدرسة، أذكر أن الطلاب كلهم كانوا يجلسون في قاعة عامة يهيئون ما يفرض عليهم، وكان رئيس المدرسة ينظر اليهم من نوافذ القاعة، وهو يتجول في الممشى، بعضهم كان يكتب، وبعضهم كان يقرأ، وبعضهم كان يلهو بمعجم "لاروس" وتصاويره، فكان الرئيس يدون في خاطره ما يعنّ له من الآراء في مراقبة الطلاب ثم يأتي في يوم من أيام الأسبوع ويلقي علينا في ربع ساعة نتائج مراقبته وأكثرها نصائح، من جملة ما قاله مرة: إني رأيت بعض الطلاب يفتحون معجم "لاروس" ويطيلون النظر فيه، فإذا كان همهم اللهو بالتصاوير، ففي ذلك ضياع الوقت، وإذا كان همهم النظر في مفردات اللغة والتدقيق في معانيها ففي ذلك فائدة كبيرة.

من ذلك الوقت نشأ لي ميل إلى مطالعة معجم من معجمات اللغة من حين إلى آخر، ثم اشتد بي هذا الميل لما قرأت مقالاً «لأناتول فرانس» في محتويات المعجمات، وأظن أني قد أشرت إلى هذه المحتويات في مواطن كثيرة، وهل عليّ من حرج إن لخّصت بعض هذه المحتويات في سطر واحد: إن معجمات اللغة فيها كل شيء، فيها أفراحنا وآلامنا وآمالنا، وفيها أفراح آبائنا وآلامهم وآمالهم. ليس هذا كل ما جاء في مقال «أناتول فرانس» وقد قرأت لكاتب آخر مقالاً لخص فيه محتويات المعجمات في كلمة فقال: إن فيها تاريخ الأمة كلها.

إن كلام هذين الكاتبين واضح لا يحتاج إلى تفسير، فإن المفردات التي يشتمل عليها المعجم تصور لنا أخلاق الأمة، وفلسفتها وعلمها وأدبها وفنونها، فكل لفظة تدل عل شيء يتعلق بناحية من نواحي الأمة، لأن الألفاظ لا توضع إلا للدلالة على الأشياء، فقد نستطيع أن نعرف ما بلغت إليه الأمة من الحضارة من مفردات المعجمات، فالأمة التي تفقد شيئاً من كل ما تقدمت الإشارة إليه لا نجد في معجمات لغتها اللفظ الدالّ على هذا الشيء، وقد نقل الجاحظ في كتاب البخلاء حديثاً لطاهر الأسير الذي قال: ومما يدل على أن الروم أبخل الأمم أنك لا تجد للجود في لغتهم اسماً، وإنما سمَّى الناس ما يحتاجون إلى استعماله.

فإذا كنت مولعاً بمطالعة معجمات اللغة من وقت إلى آخر فبعض هذا الولع ناشيء عما أظفر به في هذه المطالعة من معرفة ما يتصل بشعور الأمة وذوقها، بعلمها وأدبها، بفلسفتها وأخلاقها، بكل أفق من آفاقها.

إلا أن معجمات اللغة تدلنا على أشياء ثانية غير الذي ذكرتها، فقد خطرت ببالي في أثناء مروري ببعض ألفاظ اللغة خواطر يسيرة أحببت الإلماح إليها، من هذه الخواطر شقاوة الألفاظ وسعادتها، ولكن لا غرابة في ذلك، فإذا كانت اللغة كائناً حياً يجري عليها ما يجري على الأحياء فلماذا لا تشقى ولا تسعد، فقد يكون أحد الناس غنياً في زمن من الأزمان ثم يصير إلى الفقر، أو قد يكون فقيراً ثم يصير إلى الغنى، وقد نجد في اللغة مثل ذلك، ولعل ضرب الأمثال أشفى، فمن الألفاظ التي كانت شقية في زمنها ثم سعدت في زمننا هذا لفظة: الفنان، ماذا نجد في اللغة؟ نجد أن الفنان هو الحمار الوحشي له فنون في العدو.. ولسنا ندري متى ولدت هذه اللفظة لأنَّا لا نملك معجماً يدوّن تاريخ الألفاظ،

ولكن الذي نعلمه أن هذه اللفظة عاشت أحقاباً طويلة في لغتنا ولكنها عاشت في شقاوة، فمن الذي كان يرضى أن يطلق عليه اسم الفنان، أي الحمار الوحشي؟ إنّ في هذا الإطلاق غاية التحقير، أما في عصرنا فقد ذهبت عن لفظة الفنان شقاوتها وكتبت لها السعادة، فلم يعد الفنان في عصرنا الحمار الوحشي له فنون في العدو، ولكن الفنان في هذا اليوم صاحب غناء وتصوير ونحت فالفنانون جماعة معظّمون، مكرّمون، يكرمهم الناس وتكرمهم الحكومات وبعضهم يقلدون الأوسمة الرفيعة اعترافاً بعلوّ منزلتهم في فنهم، فلا يتذمم أحد منهم من أن يقال له إنه فنان، إنه يرى في هذا القول غاية التكريم.

أفرأينا كيف أن هذه اللفظة شقيت في عصور طويلة ثم سعدت في عصرنا، أفلا يحق لنا أن نؤمن بشقاوة الألفاظ وسعاتها.

وعلى العكس فإنا نجد أن بعض الألفاظ كانت سعيدة في أيامها ثم شقيت بعض الشيء في هذا الزمن، من هذه الألفاظ: الجرثومة، نجد في اللغة أن جرثومة الشيء أصله، وقد يكون هذا الأصل شريفاً وقد يكون غير شريف، فيقال: جرثومة الخير كما يقال جرثومة الشر، إلا أنها غلب عليها في الماضي معنى الشرف، ولم يغلب عليها في اللغة نفسها وإنما غلب عليها في الاستعمال، فقد جاءت في بعض الشعر القديم على ما أذكر وإن كان لا يحضرني الآن هذا الشعر، كما أنها جاءت في بعض النثر، وفي كل المواطن كانت تدل على شيء من أصل العز والشرف، أما اليوم فقد انحدرت عن منزلتها الرفيعة، وإذا استثنينا علم الجراثيم في الطب وقلنا في فلان إنه جرثومة فقد أردنا بقولنا إنه أصل كل أذى وفساد وشر، وما أظن أن أحداً

من الناس يسره أن يقولوا فيه إنه جرثومة، فإذا كانت لفظة الفنان قد سعدت في عصرنا فإن لفظة الجرثومة قد شقيت بعض الشقاوة، ولا ندري كم تدوم سعادة الأولى، وكم تدوم شقاوة الثانية، فإن اللغة لا تثبت على وجه من الوجوه.

وإذا لم تكن لفظة الجرثومة تدل على الشرف في أصل معناها اللغوي، وإنما جاءها هذا الشرف من استعمال بعض الشعراء والكتاب لها في القديم وضاع شرفها في الحديث، فإن لفظة "العِلْق" كريمة في أصل اللغة، فالعِلق بالكسر إنما هو النفيس من كل شيء، ولكن ماذا بقي من هذه النفاسة يومنا هذا ، ولا سيما في لغة العامة، فإن العامة إذا قالت في فلان إنه علق فقد أرادت بهذا القول أسوأ الإهانة، فالعلق في لغتها مجرد من كل شيء يتصل بالرجولة، فهو كالمخنَّث، فما في إطلاق هذه اللفظة على رجل من الناس شيء من المدح، وإنما فيه كل الذمّ. وهكذا نجد أن هذه اللفظة كتبت لها الشقاوة بعد تقلبها في السعادة عصوراً مديدة.

وما تمرّ به بعض الألفاظ من الشقاوة والسعادة في عصورها تمرّ به بعض المصادر أيضاً، وأعني بقولي هذا أن الفعل قد يكون له كثير من المصادر أيضاً، ولكن قد يغلب على هذه المصادر مصدر واحد أو مصدران فيشيع استعمال الغالب ويهمل المغلوب، فقد مررت عرضاً في خلال مطالعتي للقاموس المحيط بمادة: كال، يقال: كال الطعام كيلاً ومَكِيلاً ومكالاً، أفلا نرى أن مصدر الكيل غلب على أخويه: المكيل والمكال، فشاع استعماله في لغتنا حتى كاد المصدران الآخران

يختفيان؟ ولا أعني بقولي أنهما غير صالحين، وإنما أعني به أن استعمال الكيل غلب عليهما.

فالذي يستنبط من كل ما تقدم أن مثل اللغة كمثل الأحياء في عالم الطبيعة، فقد يجري عليها ما يجري على هذه الأحياء من مختلف القوانين مثل قانون تنازع البقاء، والانتخاب الطبيعي، وبقاء الأصلح و"التطور"، وهي اللفظة التي ولدّها عصرنا.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٥

obeikandl.com

ميلاد الألفاظ

هل أبالغ في قولي إذا قلت لا تكاد تحضرني عبارة أفصح بها عن عبقرية الجاحظ؟! ما أفسح الآفاق التي جال فيها، أي أفق لم يسجل فيه، أكان غريباً عن ميادين الفلسفة والعلم والأخلاق والعادات وما شاكل هذه الأبواب كلها؟! أمّا في الأدب فهو السماء التي لا تطاولها سماء.

ولكني أتخطى في هذا المقال كل ما أشرت إليه وأحبس الفكر على أمرٍ واحدٍ وهو ميلاد الألفاظ، فقد نقل في كتاب البخلاء حديثاً عن طاهر الأسير حدَّثه به، قال: «وممّا يدل على أن الروم أبخل الأمم أنَّك لا تجد للجود في لغتهم اسماً، يقول: إنما سمّى الناس ما يحتاجون إلى استعماله ومع الاستغناء يسقط التكليف».

إني أرى في هذه العبارة الوجيزة إشارةً إلى ميلاد الألفاظ، قد يجوز أنّ الجاحظ لم يتوسع في هذا الباب توسُّع علماء اللغة في عصرنا، فلم يذكر كيف تولد الألفاظ، أي كيف تولد أسماء المسمّيات التي يحتاج إليها الناس، ولكن فطنته إلى أن الناس يسمّون ما يحتاجون إليه تدل على فطنته إلى ميلاد الألفاظ، فلا تولد الألفاظ إلاّ إذا احتاج الناس إلى استعمالها، فما أكثر الأمور، وما أكثر الأفكار الحديثة التي تعرض لنا في مجرى الحياة وتكون جزءاً من تفكيرنا العام! ولكن كيف السبيل إلى الإفصاح عن هذه الأمور وهذه الأفكار؟ لا ريب في أن اللغة تلجأ في هذه كله إلى ألفاظ حديثة ولكنها في أغلب الأحوال تكتفي بإطلاق لفظة

قديمة على معنى حديث أو أمر جديد. وفي لغتنا العربية شواهد كثيرة على هذا الموضوع، فالألفاظ الإسلامية مثلاً لم يكن لها قبل الإسلام المعنى الذي أطلقه عليها الإسلام، ولا حاجة بنا إلى الاستشهاد في هذا الباب، فهذه الألفاظ معروفة وقد دلّ عليها علماء اللغة. وما يقال في الألفاظ الإسلامية يقال في ألفاظ كثيرٍ من العلوم كالنحو والفلسفة وعلم الاجتماع وعلوم الطبيعة وغيرها، فاللغة العربية لمّا احتاجت إلى بعض المعاني الحديثة أطلقت ألفاظاً قديمة على هذه المعاني.

ولتوليد الألفاظ التي تدل على المعاني الحديثة مذاهب بيّنها علماءُ لغة الإفرنجة يحتاج التبسط فيها إلى مقال غير هذا المقال، فالألفاظ في اللغة عرضة في كل زمنٍ للميلاد وللموت، فقد تولد اللفظة إذا أطلقها الذهن على فكرة جديدة، وتموت هذه اللفظة إذا لم يجد الذهن وراءها صورة أو فكرة، وإذا كان في اللغة ألفاظ كثيرة لم تتغير معانيها من أول نشأتها فهي لا تزال تدل على كل الأفكار وعلى كل الأمور المجرَّدة أو المحسوسة أو على كل كائنات العوالم الثلاثة: عالم الحيوان وعالم النبات وعالم المعادن، أو على أنواع نشاط الإنسانية، إلى آخر ذلك. إذا كان في اللغة ألفاظ كثيرة من هذا النمط حافظت على أوائل معانيها وعلى وحدة اللغة فإن عوامل كثيرة تعمل على تغيير معاني الألفاظ، وتاريخنا لا يخلو من هذه العوامل من أوّل نشأته حتى يومنا هذا، فقد تكون العوامل دينية أو أدبية أو سياسية أو علمية أو اجتماعية إلى غير ذلك مما يكون له صلة بحضارتنا، فالألفاظ إنما هي خدم للأفكار، فلولا الفكرة لم تكن اللفظة، على أنها قد تكون ولكنها تظل محبوسة في الذهن فهي لا تدخل في اللغة.

إذا احتاجت لغتنا مثلاً إلى إحداث ألفاظ تدل على أفكار حديثة فإنها

إما أن تلجأ إلى التعريب فتستعير من لغات أجنبية ما تحتاج إليه وإما أن تلجأ إلى الاشتقاق والنحت فتستخرج من لفظة موجودة ألفاظاً جديدة بصيغ مختلفة، وفي بعض لغات الإفرنجة أنهم يلجؤون إلى زيادات يزيدونها في أوائل الألفاظ أو في أواخرها، والتوسع في توضيح هذا كله يرجع إلى علماء اللغة.

إذا أحدثت اللغة معاني فإنها تجعل لألفاظٍ موجودة فيها وظائف كانت تجهلها هذه الألفاظ، وليس في ذلك وجه من الضرر فإن اللغة تجعل من لفظة قديمة لفظة جديدة فتقتصد في الأصوات وتجعل للصيغة نفسها وظائف مختلفة، وقد أفاض في هذا الموضوع علماء اللغة في عصرنا وفي مقدمتهم «دار مستتر» صاحب كتاب: حياة الألفاظ، الذي شرح ميلاد الألفاظ وموتها، ومحافظة اللغة وثورتها، شرحاً لا مزيد عليه، ومنه اقتبست بعض ما جاء في هذا المقال.

فاللغة في كل زمنٍ عرضة لمذهبين شديدين: مذهب المحافظة ومذهب الثورة، فإلى جنب مذهب المحافظة الذي يحرص على وحدة اللغة يأتي مذهب الثورة الذي يغير اللغة ويلقي بها في مهابّ جديدة من شأنها تغيير الألفاظ، ولا ريب في أن الأسباب في هذه التغيرات والثورات كثيرة، فإن حالة لغة أمةٍ من الأمم متصلة بأفكار هذه الأمة، فهذه الأفكار عرضة في كل عصرٍ للانتقال من حالٍ إلى حال، ففي كل يوم فكر جديد أو اختراع جديد، وكل ذلك يستلزم ألفاظاً جديدة، فاللغة العربية مثلاً شهدت الإسلام الذي جاء بأفكار جديدة استلزمت ألفاظاً تدلّ عليها، وشهدت علوماً جديدة، ومذاهب جديدة ونحلاً جديدة، وحروباً وغير ذلك، فكل هذه الأمور قد أدت إلى إحداث ألفاظ أو إلى نقل معاني الألفاظ من معنى إلى معنى.

أما كيف تحدث هذه التغييرات كلها، وما هي أسبابها النفسية والأدبية وكيف تدل الألفاظ الحديثة أو المعاني الحديثة في لغةٍ من اللغات، أما هذا كله فإنه يرجع إلى ميلاد الألفاظ.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٦

obeikandl.com

نظرات في النقد

ليس الغرض من هذا المقال الكلام على مذاهب حديثة في النقد مثل النقد الذاتي والنقد الموضوعي وإنما الغرض منه الإتيان على ذكر طوائف من الناس تنظر كل طائفةٍ منها إلى نتائج القرائح وثمرات الخواطر نظرة خاصة همُّ صاحبها إما الالتفات إلى ما يظنه مذموماً في الأثر الأدبي، وإما ربط ما يشيع من سيرة سيئة لصاحب هذا الأثر أو من معتقدٍ له بأثره الحسن مما يحمله على إهمال المحاسن، وإما الاهتمام المجرد النزيه بالأثر الأدبي دون البحث عن سيرة صاحبه وأخلاقه.

لا بأس بأن نبدأ بالذين يقفون في الآثار الأدبية على ما يعتقدون أنه مذموم ويبعدون عن الوقوف على ما هو محمود، وقد شكا الجاحظ أمر هذه الطبقة، وهل عليّ من حرج قبل ذكر شكواه أن ألجأ إلى شيء من الاستطراد فأقول إنه مهما يتوغل المتوغلون في الكلام عليه فقد يبقى قسم كبير من خصائصه مدفوناً في تضاعيف السطور يحتاج إلى الكشف عنه، ولا أبالغ إذا قلت قد تنقضي سنون طويلة ولا ينقضي الكلام على هذه الخصائص. ولا أحاول في هذا المقال الوجيز الإشارة إلى بعض عبقريته، فلم يفته شيء من علوم عصره كما لم يفته شيء من أمور البشر، وحسبي الإلماح إلى مراقبته أخلاق الناس وطبائعهم وأمزجتهم، فإن عينه التي يبصر بها وإن أذنه التي يسمع بها وإن ذهنه

الذي يدرك به، كلّ هذا قد رفع الحجاب عن كل مستورٍ من هذه الأخلاق وهذه الطبائع وهذه الأمزجة. والظاهر أنه عانى في أيامه ما يعانيه بعض الكتاب والشعراء في أيامنا من ولع الناس بالتنقيب عن كل ما يعتقدون أنه مذموم والتغافل عن كل محمود يمرّون به، ولقد ذكر الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، نضّر الله عظامه، في كتابه الخالد «أمراء البيان» أن الجاحظ قد نصح لمن يتكلفون قراءة الكتب ومدارسة العلم ألاّ يقفوا على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة وعلى مواضع من تآليفه قد عرض له فيها شيء من استكراه، ويقول لمن هذه حالة: «لو جعل بدل شغله بقليل ما يرى من المذموم تنقله بكثيرِ ما يرى من المحمود كان ذلك أشبه بالأدب المرضي والخيم الصالح، وأشدَّ مشاكلة للحكمة وأبعد من سلطان الطيش، وأقرب إلى عادة السلف وسيرة الأولين، وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة في كتبه والدفاع عن حجته يوم مناضلة خصومة ومقارعة أعدائه».

إنا نرى في هذه الكلمات الحكيمة روح الهداية والمسامحة، فلم يسلط الجاحظ بيانه القتّال على هذه الطبقة من الناس الذين ذكرهم وإنما جاءهم من طريق الاستصلاح حتى يعودوا إلى رشدهم وحتى ينتفعو بمحاسن ما يقفون عليه من الكلام. وهذا الصنف من البشر الذين تعرض لهم الجاحظ لم يخل منهم عصر من العصور وإن كانت النزعات تختلف بعض الشيء في الشدة والخفة، فقد كان بعض النقاد يربطون معتقدات الشاعر ومذاهبه بتقدير شعره، فقد قال الأصمعي في شعر السيد الحميري: قبّحه الله ما أسلكه لطريق الفحول لولا مذهبه، ولولا ما في شعره ما قدّمت عليه أحداً من طبقته. وهو يريد بمذهبه التشيع، فلست أدري ما صلة تشيّع السيد الحميري بقيمة شعره فلماذا

يُقدّم عليه الشعراء إذا كان على عقيدة من العقائد أو على مذهب من المذاهب أو على خلق من الأخلاق.

ولم يفلت الأحوص من العيّابين، فقد رأوا فيه قلة المروءة والدين وهجاء الناس ودناءة الأخلاق والأفعال، على الرغم من سماحة طبعه وسهولة كلامه وصحة معانيه ورونق شعره وصفاء ديباجته وحلاوة ألفاظه، فهكذا نرى أن ما نسب إلى الأحوص من السيئات مزجوه بما رؤي فيه من الحسنات. وما أظن أن عصرنا قد خلا من تأثير هوى النفس في الحكم على شعر شاعرٍ أو كتابة كاتب، فقد قال لي أحدهم في حق شاعر من الشعراء: أنا لاأحبه، فقد حمله كرهه للشاعر على كره شعره الجيد. ونجد كثيراً من الناس يتعقبون الشعراء والكتّاب فيحبون أن يروا في شعرهم وكتابتهم هفوة من الهفوات أو سيئة من السيئات حتى يطيروا بها وحتى تكون موضوع أحاديثهم في مجالسهم، وقد تكون هذه الهفوة غير هفوةٍ وهذه السيئة غير سيئةٍ ولكنهم مولعون بالإعراض عن الحسنات، فهم يلحقون أصحاب الآثار كما تقول العامة على الدعسة، وقول العامة فصيح لأن الدعس في اللغة شدة الوطء والأثر.

على أني قد قرأت مقالاً في بعض المجلات الفرنسية أن أصل الأمر في النقد إنما هو إظهار المحاسن لا غير، ولست أحتفظ بهذا المقال وإن كان فحواه تابعاً للأخذ والرد، وأظن أن صاحبه أراد بهذا الرأي أن تعمم المحاسن حتى ينتفع بها القارىء وأن تفوته المساوىء حتى لا تعلق بفكره وذهنه، وكيف كان الأمر فهذا رأي من الآراء لا يسلّم به الناس على السواء.

وإني أحب بعد هذه المقدمة أن انتقل إلى ناقدٍ من النقّاد فصل بين

أخلاق الشاعر ومذهبه وبين الحكم على شعره، فكان نقده مجرَّداً نزيهاً، وأريد بهذا الناقد أبا الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني، فقد روى في كتابه العظيم خبراً عن الأحوص خلاصته أن يزيد بن عبد الملك حين قتل يزيد بن المهلب أمر شعراء بهجاء ابن المهلّب منهم الفرزدق وكثير فاعتذر الفرزدق وكثير بمعاذير قبلها يزيد بن عبد الملك، وأما الأحوص فهجا بني المهلّب وأصابه بسبب هذا الهجاء شرّ شديد ذكره صاحب الأغاني، فقال أبو الفرج بعد رواية الخبر: وليس ما جرى من ذكر الأحوص إرادةً للغضّ منه في شعره، ولكنا ذكرنا من كل ما يؤثر عنه ما نعرف به حاله من تقدم وتأخر وفضيلة ونقص، فأما تفضيله وتقدمه في الشعر فمتعالم مشهور، وشعره ينبيء عن نفسه ويدل على فضله فيه وتقدمه وحسن رونقه وصفائه.

ولأبي الفرج رأي في النقد يصح أن يكون قدوة للناقدين فقد جاء في بعض كلامه على أبي تمام ما يلي: وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك، ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب، وهذا مما يتكسَّبه كثير من أهل هذا الدهر ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سبباً للترفع وطلباً للرياسة.

ومثل هذا الدفاع قذف به في الدفاع عن ابن المعتز في الأغاني، لا بأس بالرجوع إليه.

وإذا كنت قد بدأت بالكلام على إمام البلغاء وسيد الكتاب الذي خبر البشر أتمَّ خبرة، وأعني به الجاحظ، فقد أحببت أن أختمه بالكلام على ناقدٍ قد راقب الناس في أخلاقهم فشرحها وبسطها وبيّن العلل والأسباب

في ذلك على نحو ما تبيّن لنا في الدفاع عن الأحوص وأبي تمّام وابن المعتز. فما أجدر مذهب أبي الفرج الأصبهاني في النقد أن يكون نصب أذهان الناقدين في عصرنا.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق ١٩٧٧

obeikandl.com

خَوَاطِر عن عَارف بك النّكَدي

لا أرى من سهل الأمور الكلام على المرحوم عارف بك النكدي. فقد لزم من يتصدّى لهذا الكلام أن يكون محيطاً بجوانب كثيرة من حياته ولا يتيسر مثل هذه الإحاطة إلا لمن خالطه وعاشره، ووقف على خصائص خلقه وطبعه ومزاجه. وقد كتب لي أن يكون لي بعض الصلة بالمرحوم من خلال إقامته الطويلة بدمشق، ولست أدّعي أني محيط بكل شيء من فضله، ولكن الأمانة تقضي عليَّ بأن أقول ما عرفته في هذا الشأن وما عرفه بعض أصحابه، فهذه الكلمة الوجيزة تشتمل على خواطر أرجو أن أكون صادقاً فيها.

على الرغم ممّا عُرف من صلابة عوده وشدّة بأسه كان رقيق القلب في حالات خاصة، ولما توفي والدي، رحمه الله، وذلك سنة ١٩٢٦ لقيني عارف بك النكدي في ساحة المرجة في دمشق فأعلمته بالوفاة. ولما كان الأسى يبعث الأسى تذكر مقتل ابن عمه المرحوم عادل النكدي وقد مات أشرف ميتة في الدفاع عن وطنه، فانحدر الدمع على خديه وظهرت آثار الحزن على وجهه. والسر في هذا الدمع وهذا الحزن إجلاله لابن عمه ولوطنيته السامية. من هذا البكاء وقفت على رقة قلبه وفرط محبته للمرحوم عادل.

من ذلك اليوم ومن قبله نشأت صلة قوية بيننا فكنا في بعض

مجالسنا الخاصة نتساقط أحاديث مختلفة ومنها أحاديث الزواج وقد كان رحمه الله زاهداً في الزواج حتى أقدم عليه بعد سنين طويلة.

ظهرت مزايا عارف بك في توليه التفتيش في وزارة العدلية، كان في منصبه صليب العود، نزيه الخلق، مستقيم النفس لا يتهاون بمعاقبة كل قاض منحرف عن الصراط المستقيم، ولا يقصِّر في جزاء كل قاض مشهور بنزاهته. وإني لأذكر أنه نقل مرة قاضياً من أصدقائي، نقله من حوران إلى دمشق فشكرت له: فعله وقلت له إن هذا القاضي من اصحاب البيوتات الوجيهة في دمشق، فقال لي لم أنقله لأنه وجيه ولكني نقلته لأنه نزيه.

لقد قدَّر لعارف بك أن يكون من رفقائه في وزارة العدلية رجلان من أحسن الناس أخلاقاً وهما: سامي العظم ورشدي الحكيم، فكان الانسجام بينهم كاملاً، وكانت الاستقامة عنوان هذه الفئة الكريمة، ولكن أمور الاستقامة لا تدوم في عهد الانتداب الفرنسي، فما زالت السلطة تضجر من عارف بك حتى أمرت بنقله إلى حلب لتسلم من استقامته ونزاهته في الوزارة، غير أن الوزير الذي طلب إليه أن يوقع على مرسوم النقل أبى ذلك وهو من أشرف الوزراء فاستقال وجاء بعده من وقَّع على المرسوم، فاستقال عارف بك ولم يذهب إلى حلب. وانتهت مهمته في وزارة العدلية، وأقيمت له حفلة في فندق الخوّام خطب فيها بعض أصدقائه، وكانت خطبته تنديداً بتدخل الفرنسيين في الأمور ومضايقتهم لأصحاب النزاهة والاستقامة. كانت الخطبة شديدة وكأني لا أزال أسمع نبرات صوته القوية وهجماته العنيفة.

وسواء أكان في وزارة العدلية أم كان على رأس الشرطة فإن همّه الوحيد تعقب المنحرفين من الموظفين المشهورين بالفساد والرشوة وما

شابه ذلك، فما ذُكر اسم عارف بك إلا كان هذا الاسم الكريم مرادفاً للعفة والشدة وهذه صفات قليلاً ما اجتمعت لأصحاب المناصب الرفيعة في عهد الانتداب الفرنسي.

كان رحمه الله يحافظ على هيبته وهيبة منصبه فلم يُرَ في الأماكن التي كان يعتقد أن هذه الهيبة تضعف فيها، وأذكر أني اقترحت عليه يوماً أن نسمع بعض الموسيقى في محلٍ عام لا مطعن عليه ترفيهاً عن النفس فوافقني على ذلك مكرهاً، وكانت هذه هي المرة الأولى والآخرة التي ينتاب فيها ملهىً عاماً، وإن كان هذا الملهى لا يحط من قدر زواره، وهذا كله يدل على فرط محافظته على وقاره.

عالج مرةً الصحافة وظهرت شدة أخلاقه في الصحافة كما ظهرت في المناصب التي تقلب فيها. ولا يزال الناس يذكرون مقالاً له كان له دويّ وعنوانه: المستقبل لله يا مسيو بونسو! وقد ذكرني بهذا المقال أحد أصدقائي من أيام قريبة.

لا أستطيع الإيتان على كل مزايا عارف بك النكدي، ولكني استطيع أن ألخص هذه المزايا في جملة واحدة: حسبه أنه ترك في دمشق سمعة لم يتيسر إلا لقليل من الناس أن يتركوا مثلها، فضلاً عن جرأته في القول ولا سيما قول الحق، فقد كنا في المجمع العلمي في دمشق فكان الأستاذ الرئيس محمد كرد علي رحمه الله يدفع، إليه بعض مؤلفاته ويقول له أنقدها في المجلة، فكان عارف بك ينقدها دون شيء من المجاملة وإن كان مؤلفها رئيس المجمع، وهذا كله دليل على حرصه على قول الحق.

رحم الله عارف بك النكدي أوسع رحمة وأفرغ على أهله وأصحابه الصبر الجميل.

١٩٧٥

حياة الألفاظ

نمرّ في هذا العصر بألفاظ فصيحة لها معانٍ خاصة في اللغة ولكنَّا تصرَّفنا في هذه المعاني بعض التصرّف على سبيل المجاز، من هذه الألفاظ: الصعيد والمستوى والإطار وغيرها، فالصعيد في اللغة معناها: التراب أو وجه الأرض، ولكنَّا إذا وقع نظرنا على هذا التركيب: على الصعيد الدولي أو على الصعيد السياسي، فهل معنى الصعيد في هذا المقام: التراب أو وجه الأرض؟ ما أظن شيئاً من ذلك، ولست أدري هل نجد مثل هذا التركيب في لغتنا الأدبية القديمة، ولست أقصد في قولي هذا شيئاً من الاستنكار وإنما الذي أقصده إنما هو التنبيه على تصرّف عصرنا في بعض المعاني.

ومن هذا القبيل لفظة: المستوى، إنَّا نجد في اللغة: استوى: اعتدل والرجلُ بلغ أشدَّه أو أربعين سنة وإلى السماء صعد أو عمد أو قصد أو أقبل عليها أو استولى، وكما تصرّفنا بعض التصرف في معنى الصعيد فكذلك تصرفنا مثل هذا التصرف في معنى المستوى، فكثيراً ما نمرُّ بهذا التركيب: على مستوى الوزراء أو على مستوى الرؤساء أو ما شاكل ذلك، ولسنا نجد في هذا التركيب شيئاً من المعاني التي تقدَّمت الإشارة إليها.

ومن هذا النمط: لفظة الإطار، فالإطار في اللغة لها معانٍ كثيرة فالإطار ككتاب: الحلقة من الناس، وقضبان الكرم تلتوي للتعريش، وما يفصل بين الشفة وبين شعرات الشارب، وخشب المنخل، وكل ما أحاط

بشيء، ولا شك في أن هذا المعنى الأخير هو الذي يراد به في لغة عصرنا، فإذا قالوا: في الإطار القومي أو الإطار الوطني فإنما يريدون بقولهم ما يحيط بالقومية أو بالوطنية.

لا أريد أن أتبسط في الاستشهاد أكثر من ذلك، لقد ذكَّرني هذا التصرف كتاباً من الكتب الفرنسية الجليلة وهو كتاب: حياة الألفاظ لصاحبه «أرسين دار مستتر» أستاذ الأدب الفرنسي في القرون الوسطى وأستاذ اللغة الفرنسية في كلية الآداب في باريز، ومن هذه الألقاب تتبيَّن لنا قدرة المؤلف على الخوض في الموضوع الدقيق الذي خاض فيه في كتابه: حياة الألفاظ، وإذا تمنَّيت شيئاً فإني أتمنى أن يكون في لغتنا كتاب من هذا الوزن، أو أن يتيسَّر لنا على الأقل ترجمته.

افتتح المؤلف كتابه بالمدخل ثمَّ بإلقاء نظرة عامة على الموضوع، وليس من السهل تلخيص محتويات هذا الكتاب، وإنِّي لأكتفي بالإشارة إلى أقسامه الثلاثة، ففي القسم الأول تكلَّم على ميلاد الألفاظ، وفي القسم الثاني بيَّن كيف تعيش الألفاظ بعضها مع بعض، أو كيف تتعايش الألفاظ إذا صحَّ هذا التعبير، وفي القسم الثالث وضَّح كيف تموت الألفاظ، وإني لآسف على أن يدي لا تصل الآن إلى تقريظ أكبر كتَّاب فرنسة لهذا الكتاب وأعني به «أناتول فرانس».

إني أرجع إلى مطالعة كتاب: حياة الألفاظ من حين إلى آخر، وآخر مطالعتي له نشأ عنها اقتباس لأفكار جاءت في مقالتي هذه.

لا ريب في أن اللغات لا يستمرّ بقاؤها على حالةٍ واحدة، فهي عرضة للتحوّل أو للتطوّر على لغة هذا العصر، إنها عرضة لقوتين مختلفتين: قوة المحافظة أي القوَّة التي تبقي اللغة على حالتها، وقوَّة الثورة أو التجديد التي تدفع باللغات إلى وجهات جديدة.

من عوامل المحافظة حضارة الأمة مهما تكن هذه الحضارة بسيطة واعتناء الأهل بمراقبة تلفظ الأطفال والذوق السليم في هذه اللغة والرغبة في الحصول على لغة ممتازة، وإذا ترفعنا عن هذه العوامل وارتفعنا إلى أفق أعلى فإنَّا نجد للكتب المقدّسة كالقرآن في بلاد الإسلام أو كالتوارة في بلاد أهل التوارة مكانة عظيمة في المحافظة. وإذا جاوزنا هذا كلَّه فإنَّا نجد في الآثار الأدبية التي تستولي على أذواق الناس، وتوحي إلى الذين يجيئون بعدهم عبادة الصيغة التي لا مثيل لها- ما يحمل على المحافظة. هذه هي أهمّ العوامل التي تعمل على صفاء اللغة.

أمَّا العوامل التي تقف في وجه كل ما ذكرت فإنها تتلخَّص في كلمة: الثورة أو تطوّر اللغة، وهذا التطور يظهر في فساد التلفظ وفي تغيير قواعد النحو وفي إدخال الألفاظ الأعجمية على اللغة، فطائفة من علماء اللغة يجدون أن سلامة اللغة تنحصر في تتبُّع آثار الثورة مع التقيُّد في الوقت نفسه بمبادىء المحافظة.

قوَّتان مختلفتان تعملان في اللغة: قوّة الثورة وقوّة المحافظة، فالمهم أن نعرف ماذا يحدث إذا تغلبت إحدى هاتين القوتين على الأخرى، فعلماء اللغة يجدون أن الثورة إذا لم تعمل عملها وبقيت اللغة جامدة على حالها فإن خاتمة هذه اللغة إنما هو الهلاك، فالشعوب التي لا تتغيَّر حضارتها والتي لا تاريخ لها تستطيع أن تبقى لغتها على حالتها دون أن يمسَّها شيء، فإن الفكر إذا لم يتغيَّر فالبيان المعبِّر عن هذا الفكر لا يتغيَّر أيضاً، ولكن إذا منعت اللغة عن تتبع مجرى الأفكار وحدث التناقض بين أفكار الأمة وبين الصيغة التي تعبِّر عن هذه الأفكار فاللغة قد تموت، وقد ضربوا مثلاً لذلك اللغة اللاتينية «الكلاسيكية» فإن لغة

الكتَّاب ولغة الجماعة الرومانية الراقية التي امتنعت عن اتباع لغة الشعب اللاتينية قد هلكت وماتت.

وإذا كانت قوة الثورة وحدها هي التي تعمل فإن اللغة التي تتقلب في طرق التغيُّرات سرعان ما تتحوَّل وجوهها، فمرَّة تظهر وكأنَّها لغة جديدة ومرة تظهر وكأنها تنقسم انقسامات مختلفة، ففي بعض القبائل المتوحشة بطن واحد يشاهد لغات تحيا ثم تموت ثم تحيا على وجه جديد.

قد يخشى بعض علماء اللغة أن تتغلب قوة من القوَّتين على الأخرى فإذا تغلبت قوة الثورة على قوَّة المحافظة فقد تتوجه اللغة نحو آفاق مجهولة، إذ تدخلها ألفاظ جديدة أو تراكيب جديدة فتحل محلَّ ألفاظ اللغة الأصيلة وتراكيبها الأصيلة، فإذا حدث هذا فلا يعلم مصير اللغة إلا الله تعالى ولا تاثير حينئذٍ لشكوى رجال النحو أو رجال المحافظة على صفاء اللغة.

والخلاصة: إذا كان لا مندوحة لعصرنا عن بعض الأخذ بقوة الثورة أو التجديد فأرجو أن يلهمنا الله تعالى شيئاً من الاعتدال في هذا التجديد حتى يبقى لنا صفاء لغتنا التي يتصِّل بقاؤنا ببقائها.

مجلة مجمع اللغة العربية
بدمشق كانون الثاني ١٩٨٠